

## **الباب الثالث**

الحرب ضد الأتراك العثمانيين

obeikandi.com

## الحرب ضد الأتراك

### أ- المقدمة

كانت المعارك ضد الأتراك العثمانيين منذ وطأت أقدامهم بلاد الشام كثيرة ومتعددة حتى تكاد لا تحصى. ويعد مغادرة إبراهيم باشا للبلاد في أربعينات القرن التاسع عشر عادت الدولة العثمانية لتبسط نفوذها من جديد وتنتشر أحكام سيطرتها على ما تبقى لها من أقاليم، وقد قامت ببعض الإصلاحات التي تحقق شيئاً من التحديث كما تساهلت في البدء مع العصبيات المحلية والأقليات الطائفية (كما في الجبل) فأبقت للأهلين سلاحهم لتتقرب منهم ولم تجند الشباب في جيوشها، وألقى والي دمشق على عاتقهم مهمة حماية القرى المجاورة ضد البدو الذين يشقون عصا الطاعة على الدولة العثمانية<sup>(١)</sup>.

### ب- حملة قبرصي باشا وموقعة ساري عسكر ١٨٥٢م

لم تستمر مسيرة الوفاق بين السلطة العثمانية وأهالي الجبل طويلاً حيث قررت الدولة العثمانية منذ سنة ١٨٥٠ تغيير سياستها السلمية وبسط نفوذها وهيمنتها على الجبل فبدأت بتحصيل ضريبة الخراج بالقوة ١٥٠ قرشاً على كل فدان. وهي ضريبة باهظة لا تحتمل بالنسبة لقرى الجبل آنئذ. ثم طلبت سحب الشبان إلى الجندية. فتأكد الأهالي أن السلطة العثمانية قلبت لهم ظهر المجن فبدؤوا بتهيئة الحصون في جبل حوران ووادي التيم ثم أعلنوا عصيانهم على السلطة وفي الحال جرد العثمانيون الطواير لمحاربتهم<sup>(٢)</sup>.

توجه والي دمشق محمد قبرصي باشا بحملة كبيرة بلغ مقدارها اثني عشر ألف جندي. هاجمها الثوار في أزرع<sup>(٣)</sup> قبل أن تتوغل في أراضيهم.

(١) بركهاردت تعريب سلامة عبید .

(٢) الصليبي تاريخ لبنان الحديث ص ١١١ .

(٣) بلدة فيها محطة قطار. تجمع فيها ١٢ ألف جندي فرنسي (نفس العدد حملة ميشو) اندحرت سنة ١٩٢٥ بالزرعة .

فسحقوا الحملة وانتصروا عليها انتصاراً كبيراً بموقعة عرفت باسم (موقعة ساري عسكر)<sup>(١)</sup> واضطر الوالي للإنسحاب ليلاً ليتجنب هزائم جديدة. وانتزع أبناء الجبل القرى الغربية (تعار - صما - الدارة - الدويرة - الثعلة - الأصلحة - الدور) وقال الحناوي شاعر الجبل آنذاك:

أخذنا المدافع وأدبر الجيش منكسر      ولَّى على الأعقاب والأدبار  
هد ورحل من أول الليل ساري      من دون ما يطلع عليه نهار

تدخل بعد ذلك القنصل البريطاني وصديقه سعيد جنبلاط لإعادة الأسلحة التي غنمها الثوار مقابل إعفائهم من الجندية والمصالحة مع الوالي.

### جـ - معركة أمسيكي ١٨٧٥ أو 'معركة العطفة'

بعد صلح ساري عسكر، لم يرض الأتراك عن هزيمتهم أمام قلة من سكان الجبل فقرروا تجريد الحملات حتى تتم لهم السيطرة على الثوار وإخضاعهم لسلطان الدولة العثمانية، فجمعوا جيوشهم وأنصارهم بحملة كبيرة مجهزة بأحدث الأسلحة والمدافع زحفت نحو الجبل بحجة استخلاص القرى الغربية التي انتزعها أبناء الجبل من حوران، وقد حصلت معركة ضارية بين الفريقين في تخوم اللجاة سنة ١٨٧٥م فاز بها بنو معروف فوزاً ساحقاً عرفت (بموقعة أمسيكي) [خطط الشام ج٣ ص ٨٠].

وقد ورد وصف معركة أمسيكي بكتاب سعيد الزغير ص ٤٠٧ كما يلي:

(أخذ الوالي يجمع العساكر ويثير شيوخ حوران والبدو لمهاجمة الجبل. وقد بدأ جمع الحشود في حوران سراً. لكن رجالاً مسيحيان من آل قنديل من رخم نقل هذه الأخبار السرية إلى صديقه الشيخ أبو علي الحناوي الذي جمع أبناء الجبل وطلب إليهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد.

(١) الشدياق في كتابه: أخبار الأعيان في جبل لبنان ص ١٥١ - طبع بيروت.

يذكر طنوس جنبلاط في كتابه أيضاً ص ١٥٦ ما يلي: أمر السير عسكر محمد باشا القبرصي سعيد بيك جنبلاط أن يتوجه إلى حوران ليهدئ أهلها ويجتذب السكان لطاعة السلطان. فجمعهم في بصرى وأكرمهم بمال جزيل واستكتبهم عرض حال الطاعة للوزير.

عندما اكتمل استعداد السلطنة والجنود لغزو الجبل قسموا جموعهم لسبع فرق وقرروا أن يشدوا لهم عطفة لتشجيع المحاربين بالقتال. وطلبوا لابن المذيب من نوى أن يسمح لابنته الجميلة بأن تكون العطفة، فاشتراط عليهم انتخاب أشجع الفرسان لحمايتها فألبسوها الثياب الزاهية وزينوها بالمصاغ اللامع كما زينوا هودجها بالطنافس والبندود والشراشيب الملونة. ثم اتفقوا أن يتحصنوا في اللجاة الوعرة قبل أن يسبقهم إليها الثوار، فأسرع ابن قنديل وأخبر الشيخ الحناوي بالخطبة، لذلك زحف أبناء الجبل إلى قرى اللجاة (لبين - جرین - حران - داما) وتحصنوا بها حتى حانت المعركة، فهاجموا عملاء الوالي من ثلاث جهات: الجنوب والشرق والشمال. وبعد ساعة من الهجوم الصاعق انتصر أبناء الجبل واستولوا على العطفة - (وهي جزآن بضربة سيف واحدة قطع رقبة الهودج ورأس قائد الهودج حتى الكتف وقائمة الهودج المقابلة فارتمت عليه العطفة وانهزم الجنود وتعقبهم الثوار حتى قرية تبنا) وعاد أبناء الجبل ومعهم العطفة بموكبها وهودجها الجديد إلى قنوات<sup>(١)</sup> وهم يرددون أهازيج النصر مثل:

لو فزعنا وتكامل فزعنا      لو لحقنا نذك الطلايب  
بالمبارك حقوقنا انتزعنا      حطمنا الجيش سيطرنا عالكتايب

وقد أوصى الحناوي بالمحافظة على العطفة وصيانتها. حيث أن والدتها التي أسرع في اليوم التالي لتفقدتها، وجدتها سالمة وعرضها ومصاغها مصانان وقد أكرمها أهالي قنوات واعتبروها ضيفة عندهم بعدما اكتشفوا أنها عربية تنتسب لآل المذيب.

وقد سمح لها الحناوي بالعودة مع والدتها إلى نوى سالمة غانمة مع فصيل من الثوار لحمايتها حتى حدود قريتها. وقد أوصاها أن تقول لوالدها ابن المذيب:

(١) يرى أكثر المؤرخين أن العطفة وصلت إلى السهوة، وفيها تمت المقابلة مع الشيخ الحناوي ووالدتها.

تبصّرياً أعمى العيون العطشة بـدّها وبـدّها

العطشة لابن الشعلان بالحرب ما انتش قدّها<sup>(١)</sup>

### ٤- حرب لبنان وبروز الأطرش على الحمدان

برزت في الجبل في هذه الأثناء أسرة الحمدان وأخذت منذ سنة ١٨٦٤ تحكم الجبل حكماً مطلقاً مؤيداً من الوالي العثماني الذي جعل الجبل قضاءً تابعاً لدمشق<sup>(٢)</sup>.

وتحمّل جميع سكان الجبل بعد ذلك مظالم الحمدانيين الذين كانوا يفرضون زعامتهم على كل قادم إلى الجبل للاستيطان. فكانوا يأخذون عشر إنتاج الأراضي وكل ذكر يولد من الحيوانات والمواشي. واعتبروا أنفسهم مالكي الجبل ينزعون الأملاك من معارضيتهم، ويملّكون مؤيديهم كما يشاؤون، وفرضوا الجزية على المسيحيين ودفع عشر ليرات ذهبية على كل فتاة مسيحية تتزوج<sup>(٣)</sup>.

وقد وقعت في هذه الفترة بعض الحوادث الطائفية المشؤومة في لبنان لضعف الوعي القومي وسوء تصرف الحكام وتحريض العثمانيين والأوروبيين، استجد أثناءها بنو معروف في لبنان بأقاربهم في جبل حوران. فأنجدهم هؤلاء بما يقرب من ألفي مقاتل على رأسهم إسماعيل الأطرش<sup>(٤)</sup> شيخ بلدة القريا وكان بينهم عدد من بدو السلوط والسردية والكثير الكثير من أبناء حوران، فانتصروا في معارك زحلة وكسبوا الكثير من الخيول الزحلاوية الموصوفة، وقد لمع نجم إسماعيل الأطرش في هذه المعارك كما ازداد التقارب بين أبناء معروف والبدو في هذا الجبل المحفوف

(١) الرغير ص ٤٠٨.

(٢) الرغير ص ٤٤٠.

(٣) نفس المصور ص ٤٤١.

(٤) إسماعيل الأطرش: جده علي بيك العكس من الجبل الأعلى. نزح إلى برمانا في لبنان ثم بقعسم ثم جرمانا في الغوطة. ثم عاهرة في الجبل وكان أطرش، رزق ٤ أولاد أكبرهم إسماعيل الذي ذهب إلى مزيد الحمدان بالسويداء فمنحه القريا مقابل ١٠٠ رأس من الماعز وأصبح شيخاً لها.

بالمخاطر. فكان أبناء معروف ينجدون رعاتهم البدو على أعدائهم وكما كان عربان الجبل والقبائل الأخرى من البدو يساعدون أبناء معروف في بعض معاركهم ضد الدولة العثمانية.

وبعد العودة من لبنان أغتتم إسماعيل الأطرش نفور الناس من الحمدان ومظالمهم فاحتل قرية عرى سنة ١٨٦٨ دون مقاومة ثم تقرب من شيخها حسين الحمدان المقيم في قرية رساس بزواج ولده شبلي من ابنة حسين المذكور وأخذ يحرضه على قريبه واكد الحمدان ليساعده على احتلال مركز زعامة السويداء<sup>(١)</sup>.

طلب أهالي السويداء من واكد الحمدان سنة ١٨٦٩ تمليكهم الأراضي والامتناع عن ترحيلهم من قراهم، وأن يدفع ضرائب الدولة عنهم من القلاط<sup>(٢)</sup> الذي كان يأخذه من البدو، فرفض ذلك مما جعلهم يواصلون الاجتماعات والاتصالات سراً بإسماعيل الأطرش الذي اتفق معهم على قبول زعامته مقابل تلبية مطالبهم التي رفضها واكد الحمدان. لكن المنية عاجلته قبل تحقيق أمنيته بدخول السويداء فأوصى ابنه إبراهيم الذي دخل السويداء فاتحاً مع الطرشان وأنصارهم من القرى ببيارهم ومساعدة أهالي السويداء الذين لبى مطالبهم سنة ١٨٧١ بينما كان الحمداني ينسحب إلى ولغا ثم إلى بصر الحرير عندما لم يجد من يؤيده. وقد جرت بعد ذلك تنظيمات جديدة في الجبل حيث أسندت مهمة القضاء وفصل الخلافات لآل أبو عساف في قراهم وإلى آل أبو راس في الرحي. وقد دامت زعامة الحمدان ١٨٤ سنة أخذت بعدها سيطرة الأطارشة تمتد جنوباً على القرى المسكونة حديثاً في الجبل ذات العائلات الصغيرة بينما استقلت الأسر القوية بزعامة القرى الشمالية والشرقية والغربية<sup>(٣)</sup>.

<sup>(١)</sup> الزغير ص ٤٤٢.

<sup>(٢)</sup> القلاط: ضريبة عن كل شاة تسرح بأراضي الجبل يدفعها البدو.

<sup>(٣)</sup> الزغير ص ٤٤٣ - الزغير ص ٤٤٣

## هـ- عرس فهيدي ١٨٧٨

ازدادت المناوشات بين أبناء الجبل وأبناء السهل في حوران الذين كانت تحرضهم السلطة العثمانية ضد أبناء الجبل لإضعافهم ويسط سيطرتها على جبلهم، فأرسلت إلى بصر الحرير قوة عثمانية بقيادة جميل بيك وعاكف بيك طلبت مشايخ الجبل للمفاوضة، فحضر وفد طلبت منه اللجنة التركية سبعة مطالب أهمها: دفع الأموال الأميرية للحكومة، إرجاع قرى (الدارة - ولغا - ريمة - سميع - الثعلة - الأصلحة - تعارة - الطيره - صما - السجن - الدور - المجيمر - سكاكة - خربا - بكا) لأصحابها، وقد أجاب اللجنة الشيخ أبو علي قسام الحناوي فقال: أما الأموال الأميرية فإنها تدفع بطيبة خاطر لأنها تدفع كزكاة أموال وفرض واجب أما تسليم القرى لأصحابها فهذا أمر لا تقبله العشائر فكما أخذناها نحن بالسيف فليأخذوها هم بالسيف أيضاً وإذا أردتم أن تستلموها بالقوة فلن نسلّمها إلا بعد إرواء أرضها بالدم. وإذا مشيتم علينا فلا نقابلكم إلا بالبارود واليوم المقرود (المشؤوم)<sup>(١)</sup>.

وفي عام ١٨٧٨ م لجأ إلى ياسين الحريري شيخ بصر الحرير شاب هو أحمد الجوفي من السعودية وخطيفته فهيدي - من عائلة البروم في ذرعا. وقد لجأ إلى الشيخ ياسين لمساعدته، فأعجب هذا بجمال الفتاة فتزوجها وطرد دخيله الجوفي الذي التجأ إلى حمود نصر<sup>(٢)</sup> شيخ قرية تعارة المجاورة. وكان عمل الشيخ منافياً للعادات والتقاليد فخاف من سطوة أبناء الجبل ولجأ إلى الحيلة خوفاً من نتيجة عمله السيئ. فأرسل امرأتين تقولان للجوفي أنهما مرسلتان من قبل فهيدي وأنها ستهرب ليلاً لتلقاه عند البركة جنوب شرقي بصر في موعد حددته المرأتان. لذلك يجب حضوره في الوقت المحدد لتهرب معه. وعندما أخبر حمود نصر عن طلب الإمرأتين حذره هذا من مكيدة تتهدد حياته وعندما أصر الجوفي على ملاقاته خطيفته، اضطر الشيخ حمود أن يرفقه بثلاثة أشخاص لحمايته، ولما وصل قرب البركة ليلاً وأظهر الإشارة المطلوبة خرج عليه رجال الكمين يريدون قتله فأنجده المرافقون وعادوا أدراجهم

<sup>(١)</sup> حنا أبو رشيد ص ٥٣.

<sup>(٢)</sup> محافظة السويداء ص ٣٩.

مسرعين يتعقبهم رجال الكمين فأطلق محمود نصر النار عليهم وأصاب الخردق  
عيون هشمان الحريري شقيق الشيخ ياسين ففقد بصره وباعت المحاولة بالفشل وعاد  
رفاق الجوفي يرددون:

ما طول فهيدي عندكم      دفا انكم ما يستريح

عادتنا شرب الدما      مفزاعنا يسبق الريح

وبعد عدة مناوشات وقتلى من الفريقين اشتكى أهالي بصر إلى الوالي التركي  
وبما أن السلطة كانت ترغب ببسط نفوذها على الجبل فجهزت جيشاً كبيراً سنة  
١٨٧٦ بقيادة جميل باشا<sup>(١)</sup> مجهزاً بالمدفعية وأحدث الأسلحة خيم في بصر الحرير.  
وكان أهالي الجبل قد تداعوا للدفاع عن جبلهم وحريرتهم، فأمر الباشا  
التركي، بمقابلة الثوار شرق بصر أولاً بخسمائة خيال حيث قتل قائد الخيالة وعدد  
كبير من جنوده فاستشاط الأتراك غضباً، ودفعوا الحملة بأكملها لمهاجمة قرى  
الجبل وبدأ القتال عند بزوغ الفجر فثبت بنو معروف بمواقعهم حتى الظهر حيث  
ضغطت عليهم كثرة الجنود وقنابل المدافع فتراجعوا حتى نبع قراصة بعد أن سقط  
منهم عدد كبير من الشهداء، لكنهم هنا تناخوا فرساناً ومشاةً وشنوا هجوماً  
صاعقاً على الجيش وأطلقوا سيوفهم البواتر على رقاب الجنود قتلاً وتقطيعاً وذبحاً  
وكان المشهد الهائل المؤثر: خيول غائرة ورؤوس طائرة وأشلاء متناثرة حتى اضطر  
الجيش للتراجع بعد أن أصيب بخسائر فادحة، وقويت عزائم الثوار فتعقبوه حتى  
تحول تراجعهم إلى هزيمة نكراء أوصلته غرب تعاره.

وقد التقى الشيخ أبو علي الحناوي ومحمد أبو عساف عند المدفع فقفز جواد أبو  
عساف من فوق المدفع وضرب المدفعجي بسيفه فأرداه قتيلاً، ولقفزة جواده عرف  
(بالقميزي) أما الشيخ أبو علي المحاذي لأبي عساف بالهجوم فقد استهدف فوهة  
المدفع وسدها بعمامته ليعطل عمله.

(١) محافظة السويداء ص ٤٠.

واستمر القتال حتى حلول الظلام<sup>(١)</sup>. وفي الصباح استولى بنو معروف على عتاد الحملة وأسلحتها ألقى بندقية من نوع مارتين تستعمل لأول مرة في معركة قراصة وعدد من المدافع والذخيرة والقنابل، وكانت خسارة الثوار ٢٢٠ شهيداً. وقد وصف شبلي الأطرش هول هذه المعركة فقال<sup>(٢)</sup>:

|                                         |                                                       |
|-----------------------------------------|-------------------------------------------------------|
| أول فتوح الشر جازة <sup>(٣)</sup> فهيدي | وجرى عقبها عركات يا أبو الهمائم <sup>(٤)</sup>        |
| قام الحريري جرد الترك والحضر            | وجميل باشا قائد الجيش حازم                            |
| بنوا على خربة تعارة خيامهم              | في يوم أسود مثل ليل الظلايم                           |
| جوههم بنو معروف من كل جانب              | مثل الأسود طالبن الغنائم                              |
| جرى يوم قراصة الذي تخبرونه              | ياما <sup>(٥)</sup> فقدنا كل قرم <sup>(٦)</sup> مخاصم |
| من عقبها صارت غرامة وأصلحوا             | والنار تضرم عند هب النسائم                            |

وانتهى الأمر أخيراً إلى المصالحة بين أهالي بصر الحرير وأهالي تعاره والدويرة من آل نصر الذين انتقلوا إلى نجران وسكن مكانهم آل عزام تفادياً لتجدد الخصام<sup>(٧)</sup>، وفي سنة ١٨٨٠ استفادت الدولة من شجار عشائري بين أهل الجبل وجيرانهم فأرسلت على آل معروف حملة بقيادة المشير حسين فوزي باشا وتمكنت من تأسيس قائم مقامية جبل الدروز تسلمها إبراهيم الأطرش الذي نال ثقة الدولة

<sup>(١)</sup> الزغير ص ٤٤٥.

<sup>(٢)</sup> ديوان شبلي ص ٨٥.

<sup>(٣)</sup> جازة: زواج.

<sup>(٤)</sup> عركات: معارك.

<sup>(٥)</sup> ياما: كم وكم.

<sup>(٦)</sup> شجاع قوي.

<sup>(٧)</sup> الزغبى ص ٣٦.

كقائم مقام للسويداء. وعين هزيمي هنيدي (والي باشا) مديراً لفاحية المجدل وسبع مديريات أخرى على رأس كل منها مدير من أبناء المنطقة<sup>(١)</sup>.

## و- الحركة العامية - أو (العامية)

{كومونة باريز في الجبل} ١٨٨٩ - ١٨٩٠ م

لقد كان مجتمع الجبل في هذه الفترة مجتمعاً عائلياً: عائلات كبيرة بنفوذها مثل آل الأطرش وعامر، والحلي، وعائلات أصغر: هنيدي، نصر، أبو عساف، أبو راس والعائلات الصغيرة وهي تنتظم أو تتحالف مع العائلات الأكبر منها أو مع بعضها لتشكل مجموعة كبيرة تحمي نفسها من تسلط العائلات الأكبر. لكل بلد شيخ معترف بنفوذ. وشيخ البلد يرحل وينزل، ويوزع الأراضي والدور للسكن حسب هواه للذين يستفيد من خدماتهم ودعمهم لمشيخته. وقد تكونت العامية في الجبل من ثلاث فئات هي:

١- فئة المزارعين الذين يعملون في أراضي المشايخ بحصة من الإنتاج مقدارها ربع الغلة.

٢- فئة المهنيين والحرفيين والتجار والفلية.

٣- فئة الفلاحين الذين يسكنون في بيوت ويعملون في أراضٍ لا يملكونا لأن المشايخ باستطاعتهم ترحيلهم ساعة يشاؤون وبأبسط الأسباب:

ازداد التناقض بين العامة الكادحين والمشايخ المستغلين ولم يعد توزيع الأراضي على الشكل السابق قادراً على حفظ التوازن في المجتمع. ثم جاء سلوك أربعة من الزعماء المستغلين ليؤجج نار الثورة ويدفع بالحركة العامية لخوض معارك دامية في سبيل الكرامة الإنسانية ورفع الظلم عن الفقراء وتثبيت حق التملك في الأرض بدون ترحيل وهم<sup>(٢)</sup> :

<sup>(١)</sup> إبيعي ص ٢١٢.

<sup>(٢)</sup> إبيعي ص ٢١٢.

١- إبراهيم الأطرش الذي ظهر بعد تسلم المقامية كأنه موظف عند الدولة العثمانية ينفذ سياستها ليثبت زعامته.

٢- شبلي الأطرش الذي جاء ينافس إبراهيم معتمداً على العامية للوصول إلى الزعامة الأولى.

٣- وهبي عامر الذي حرك العامية في المقرن الشمالي لعزل إبراهيم الأطرش والوصول إلى الزعامة الأولى.

٤- سعيد نصر في المقرن الغربي (نجران) الذي أنشأ حركة العشائر المعارضة لامتداد الزعامة الطرشانية ومحاولة حصرها في المقرن الجنوبي فقط.

ويقول بذلك حنا أبو راشد، (عندما وجد سعيد بك نصر أن بني الأطرش قد وطدوا زعامتهم في الجبل وأن إبراهيم باشا وضع يده بيد الدولة العثمانية، أبرز حجة فيها إمضاءات جدود كثير من العشائر من إمارة بني بشر. وفي مطلع سنة ١٨٨٦ دعا إلى نجران زعماء عائلات: فاضل، القنطار، الحجلي، زهر الدين، غزالة، كيوان، عزام، عريج، نصر، حمزة، الزاقوت، وتلا عليهم الحجة ومضمونها:

إن إمارة بني بشر المؤلفة من ثلاثمائة شخص نزلت في كفتين من قرى الجبل الأعلى بحلب، ومنها تفرقوا في البلاد بعد أن كتبوا حجة مؤرخة سنة ٨٠٠ ميلادية، فوقع عليها نجم الدين وابن عمه فاضل يعترفان بها أن العشائر المدرجة أعلاه هي من أصل إمارة بني بشر. وأن الحجة ظهرت عند عبد الكريم في حاصبيا، وآل الزاقوت وضعوها معه بصفته شيخ روحاني، وأن سليم كمال وسلمان حمزة من عتيل استحضروا الحجة من بيته في خلوات الكفير من أعمال حاصبيا وذلك سنة ١٨٨٥م ومن مزاياهم إذا قرروا أمراً نفذوه...!! وبعد أن أطلع عليه المجتمعون وقعوا عليها إمضاءاتهم وزادوا عليها: بصفتنا أبناء عم من لحم ودم نتعاهد أن كل منا يهدر دماءه في سبيل تعزيز أي فرد من أفراد هذه العشائر المتضامنة بالدم والنار. والمعاهدات التي يوقعونها مقدسة بنظرهم.

كان نجم إبراهيم الأطرش قد استقر في عرمان مع بعض العائلات القوية برجالها وقد جرب التحكم بأمور العامة وانتزع من آل القلعاني السيطرة على مياه

حبكي، وأجبر البدو على تأدية (القلاط)<sup>(١)</sup> مقابل إرواء مواشيه من هذه الينابيع. ولما أقام إبراهيم الجرمقاني وليمة أكبر من وليمته غضب منه وأمره بمغادرة عرمان بحجة منع الإسراف، وكان العامة قد زاد استياؤهم من كثرة السخرة التي يقدمونها للشيخ:

تسخيرهم للحصاد وجمالهم للرجيدة وغير ذلك من التحكم التعسفي، الذي جعل العائلات تقف بجانب الجرمقاني وتشكوه إلى شبلي الأطرش الذي حضر إلى عرمان للتوفيق بين نجم والعامة لكنه شجع العامة متآملاً أن ينال شقيقه يحيى زعامة عرمان الغنية بأراضيها والأموال التي كان يدفعها الواردون ينابيع حبكي. لكن نجم الأطرش طلب مؤازرة إبراهيم الأطرش شيخ السويداء لمساندته فقوي الخلاف، وكان شيخ ملح مستبداً بسلطته أيضاً مثل شيخ عرمان، فجرى اتصال بين الفلاحين في عرمان وملح وتمان والهويا، واجتمع في خربة المجدل (مجدل الشور) التابعة لعرمان ستة أشخاص أولاً هم:

إسماعيل العطوانى - صالح الحلبي /عرمان/ - صالح غزالة - صالح رزق /ملح/-  
وحمّد العيسمي وقاسم الديبسي /تمان/ واتفق المجتمعون على البدء بالحركة العامة ودعوا لاجتماع كبير موسع في نفس المكان في نيسان سنة ١٨٨٨ الموافق في ٥ شعبان سنة ١٣٠٦ هـ أي قبل معركة السويداء بعدة شهور وقد وقع المجتمعون البيان التالي:

### وثيقة مجدل الشور ٨٠ توقيعاً (الحمد لله وحده)

سبب تسطيره الافتراءات والطمع والتعديات الجارية علينا من جهة مشايخنا وبما أنهم تعمدوا تكتيلنا ونفينا من محلاتنا ومن كامل المقرن بدون تعديات منا ومرادهم محاربتنا بعضنا لبعض، وبما أننا عمرنا القرايا وسكننا بها وتخسرنا خسائر جسيمة عليها. ولنا منذ ثلاثين سنة وبأعظم المشقات خاضعين لأوامر مشايخنا ولتلبية كل شيء لمرضاتهم، وندفع لصندوق الخزينة العامة الأموال الأميرية ونحافظ على تحسين النظام وعلى الشرف والناموس. وفي سائر الأحوال. ثم

(١) سعيد الزغير ص ٤٥٥.

نقدم أنفسنا ونرخص أرواحنا ونسفك دماءنا ونرخصها في سبيل الحماية والشرف أمام شيوخنا. ومع سلوك هذا السبيل وجدنا قلة الإنصاف منهم ذلك فقد قررنا واجتمعت آراؤنا نحن الواضعين أسماءنا وأختامنا في أدناه على أن نكون متعاهدين متناصرين على كف التعديات عنا ، محافظين على صوالحنا وعلى تمشي الحقوق وتعديل النظام في غاية النهي.

وإننا إذا صار علينا تعدي مثل رحيل أو تغيير أحوال تحل بعمارنا وتمس صوالحنا الخيرية أو ناموسنا، نقوم يداً واحدة بدون أن يتأخر أحد منا ، وعلى هذا القول الله ونبي الله شهيد ، والذي يُهمل معاضدة ربه من الأربع قرايا المقرين بكتب هذه المطلوبة يكون بريء من الله ومن أنبيائه ولا يجد شفاعته يوم قيام الساعة بل عليه لعنة نما من الأرض إلى السما. ثم يكون رأسه خالي من الناموس والشرف والحماية ولا له بين الغانمين مقعد ولا في السما مصعد ، بل تكون حرمة أجل منه في سائر الأحوال. والذي يغير أو ينحرف من طريق ربه يكون مستوجب بعدل واستحقاق من الله ومن العبيد بجميع هذه الشروط والمذلة المشحونة بالإسفال.

وبما أننا قرينا على أنفسنا جميعاً وقبلنا كقابلي الحجج على أنفسهم طوعاً من غير كره ولا إجبار وتعهدنا وتكفلنا بالقيام بمضمون هذه الوثيقة برضى وقبول ألزمتهم القيام بموجبها لزوماً شرعياً. وللبيان حرر في ١٥ شعبان ١٣٠٦ هـ (نيسان ١٨٨٨ م).

حسين صيموعة - قاسم غزالة - خليل كيوان - إسماعيل العطواني - حمد النجم جريوع - صالح الحلبي - حمد الزغير - نجم العطواني - حسن طرييه - يوسف الصفدي - أسعد عزمي - قاسم الشريطي - زين الدين رشيد - قاسم نعيم - إسماعيل عبد الدين - إبراهيم الجرمقاني - محمد العطواني - منصور الدعبل - صياح أبو حامد - محمد أبو دهن - حسين عزمي - علي رزق - رستم مسعود سلمان القنطار - محمد جابر - حسين بدوي - حمد صيموعة - يوسف الجفامي - بو حمد القاضي - محمود منذر - هزيمة نعيم - أحمد منذر - حمد سليم - حسين الشمندي - عثمان أبو راس - محمد ملاعب - محمود كيوان - مراد عماد - محمد العيسمي - حسين نجد - بر الجمال - قاسم بوسعيد - خطار الأحمد - بشير كيوان - محمد نعمان - علي رافع - علي رشيد - محمد الشعار - فارس الديبسي - يوسف العيسمي - فارس أبو قنصوه .

أمين العيسمي - سلمان العيسمي - محمود جابر - فهد الحلبي - سليمان أبو هرموش -  
فارس الشاعر - علي سعيد - فهد أبو عاصي - يوسف جودية - إسماعيل الكريدي -  
حمد زين الدين - محمد بو غاوي - حسين الشاعر - يوسف بو مغضب - عجاج بو  
مغضب - علي بو مغضب - يوسف الخطيب - قاسم عزيز - عامر الصفدي - حمد  
قطرب. (٨٢ توقيعا)<sup>(١)</sup>. وناقشت ظلم المشايخ ومطالب الفلاحين.

ولما تأكد شبلي الأطرش من أن قوة العامية قد ضمت الكثير من الزعماء  
الأقوياء. انضم إلى المعسكر الشعبي وراح يجوب أنحاء الجبل داعياً إلى التمرد على  
الأنظمة الحكومية القائمة متهجماً على الإقطاعيين وتعسفهم واستبدادهم، وقد نال  
وعداً بأن تبقى أملاكه سالمة بأكملها {ربيع أراضي عرى}<sup>(٢)</sup>.

وقد ورد في كتاب محافظة السويداء<sup>(٣)</sup> ما يلي: (إن شبلي الأطرش كان ينافس  
أخاه إبراهيم على النفوذ في السويداء ويعارضه على انجرفه مع الدولة العثمانية  
ويعيّر من أجل ذلك بلقب أبو طريوش ولعل في هذه المعارضة استرضاءً لعواطف  
الأكثرية من أبناء الجبل التي تكره الأتراك وتسيء الظن بهم. ومهما يكن من أمر  
فقد كان لشبلي الأطرش اتصالات كثيرة مع رؤساء الحركة العامية تهدف إلى  
تشجيعهم والإفادة من حركتهم، لعل من الطريف أن نذكر أنه حرّض الفلاحين في  
قريته عرى على أن يهاجموه علناً. وقيل إن هؤلاء تكتلوا فشكّلوا قوة أطلق عليها  
من المزاح اسم (حزب الزمنطوط) أي رعاع القوم وراحوا ينددون بالإقطاعية وبتحكم  
الشيوخ وسوء تصرفهم.

ولكن شبلي الأطرش يهاجم بقصائده حركة العامية ويصفها بالتخريب  
والفوضى لذلك يرجح أن شبلي الأطرش أبدى أول الأمر ارتياحه من مقاومة الفلاحين  
لبعض أقاربه المنافسين له ثم شجعهم على هذه المقاومة دون أن يتوقع تطورها إلى ثورة  
شاملة ضد الزعماء كلهم، وربما أدرك فيما بعد أن نجاح الثورة أمر واقع فأسرع

(١) عبد الله حنا ص (١٩٦-١٩٤) سعيد الزغير ص ٤٥٣.

(٢) سعيد زغير ص ٤٥٥.

(٣) محافظة السويداء: نشر وزارة الثقافة والإعلام السورية ص ٦٧.

لمسايرتها آملاً بأن تكون نتائجها عليه أقل ضرراً وأخف أذى، وهذا ما تحقق بالفعل حيث سمح له الشعب بامتلاك ربع أراضي قرية عرى بينما لم يسمح للشيوخ الآخرين إلا بنصف الربع في القرى التي يتزعمونها.

أما فيما يتعلق بأهداف العامية فيمكن أن نجملها فيما يلي:<sup>(١)</sup>

١- وضع حد لتحكم الشيوخ وسوء تصرفهم مع الفلاحين.

٢- عدم ترحيل الفلاحين من قراهم ومن الأرض التي يزرعونها.

٣- الاعتراف بملكية الفلاح للأرض التي يستخدمها.

٤- تطويب الأرض لضمان امتلاكها.

٥- أن يكتفي الشيخ بملكية (٨/١) أراضي قريته وهذا ما يسمى بنصف الربع.

٦- أن يكون للفلاحين الحق في تعيين مخاتير يمثلونهم ويهتمون بمصالحهم.

أما الأطارشة الآخرون فقد تصلبوا ضد هذه الحركة لأنها تحد من تسلطهم وتزعج نصف أراضيهم وقد جرى أول اشتباك في قرية ملح يوم الخميس في صيف ١٨٨٨ وأسفر عن مقتل شخصين، ثم انتقل القتال إلى عرمان حيث قتل خمسة عشر رجلاً وامرأة.

اضطر الأطارشة بعدها للجلاء إلى المقرن الغربي. وفي السويداء دام القتال طوال النهار وأسفر عن مقتل أربعين شخصاً، ثم ارتفع عدد القتلى بعد وصول النجدات من القرى إلى سبعين شخصاً. وكانت المعارك قد امتدت إلى القرى التي لا يتزعمها الأطارشة في شهباء والهيت والبهينة ضد آل عامر، وفي عراجة ضد آل ناصيف وفي لاهثة ضد آل عز الدين حيث قتل ثمانية رجال.<sup>(٢)</sup>

أجمع كافة المؤرخين أن هذه المعارك كانت صورة مصغرة لأول ثورة اشتراكية في هذه المنطقة العربية وقد شبهها بعضهم بكمونة باريز<sup>(٣)</sup> (أول حركة عمالية في أوروبا)

<sup>(١)</sup> الزغير ص ٤٥٦.

<sup>(٢)</sup> نفس المصدر (٦٨).

<sup>(٣)</sup> ورد هذا التشبيه بكتابات الأستاذ ميشيل عفلق

حيث كانت تهدف إلى تعزيز الكرامة الإنسانية وتحقيق المساواة بين أبناء الوطن الواحد بالأملاك والعلاقات الاجتماعية حتى يكون الجد والنشاط ومؤهلات الشخص الفردية، لا نسبه العائلي هي التي تؤهله للمكان الذي يستحقه في مجتمعه دون الفوارق الطبقية التي لا يجوز أن يكون لها وجود في هذا المجتمع.

وقد طبق العامة مقررات مجدل الشور فشكلت لجان فلاحية لتوزيع الأراضي وتدير مختلف الشؤون وتصدوا للمناوشات ودوريات السلطة وهجمات البدو والحضر من الجيران المحرضين من قبل العثمانيين.

وعندما اشتد ضغط العامة على آل الأطرش جلوا إلى المزرعة وضواحيها ومكثوا فيها أكثر من شهرين. وفي هذه الفترة ذهب وفد منهم إلى دمشق يستحث الوالي على نجاتهم<sup>(١)</sup>.

ويرى بعض المؤرخين أن بعض المسؤولين العثمانيين قد لعبوا دوراً في العامية من حيث التشجيع ليس حباً بأهدافها ولا إيماناً بمبادئها بل أملاً في إثارة الفتن بين أبناء الجبل وإيجاد النافذة التي يستطيعون منها الدخول إلى هذه المنطقة من أجل السيطرة عليها.

وهكذا وجد الوالي العثماني أن الفرصة سانحة للتدخل ويسط النفوذ العثماني فأعلن استعداده لمساعدة الأطراف وإعادتهم ضمن الشروط التالية<sup>(٢)</sup> :

- ١- أن يقبل إبراهيم الأطرش ببناء قلعة في السويداء.
- ٢- أن يقبل بتثبيت ملكية الأرض وتطويبها لأن ذلك يزيد من كمية الضرائب التي تجبها الدولة.
- ٣- الاعتراف بحق الفلاح في امتلاك الأرض التي يستعملها وعدم ترحيله.

<sup>(١)</sup> محافظة السويداء ص ٧٢.

<sup>(٢)</sup> محافظة السويداء ٧٣.

وقد حاول السيد هزيمي هنيدي التوسط بتكليف من الدولة ، فرفض العامة وساطته لاعتقادهم أنها خدعة من الوالي ولعدم ثقتهم بإبراهيم الأطرش الذي وافق مع الدولة على بناء قلعة في السويداء لمصلحتها المتعارضة مع مصلحة أبناء الجبل.

### معركة الشقراوية ١٨٩٠

بعد ما فشلت الوساطة مع العامية الذين أصروا على موقفهم، أرسل الوالي إلى الجبل حملة كبيرة بقيادة ممدوح باشا مؤلفة من ست كتائب مشاة وألای فرسان مع المدافع<sup>(١)</sup> تمركزت جنوب الثلة ثم تقدمت نحو ولغا، واشتد القتال شمال غرب السويداء (موقع الشقراوية) حيث تمكن الجيش من دخول السويداء على جثث مئات القتلى من الفلاحين وقادة العامية مصطحباً معه الأطرشة، وسارع لبناء القلعة بالسويداء. هذا وقد وصف شبلي الأطرش معركة الشقراوية بقوله:

|                                 |                                          |
|---------------------------------|------------------------------------------|
| ظهر عقبها عسكر على أرض السويداء | ممدوح باشا قائد الجيش حازم               |
| وقال المشايخ يا ربيع رجعوهم     | حقن الدماء ذمة الكل لازم                 |
| ردوا جواب الكل بعد المشاورة     | ما عاد إلنا شخص منهم يلايم               |
| يوم الخميس الصبح جر العراضي     | إلى شرق ولغا جودل الجيش زاحم             |
| يوم إن وطى وعرة الشقراوية       | قال الدروز اليوم خبط العمائم             |
| وتواصل الجمعان في حومة الوغى    | صارت ضبيبي واختلطها كتايم                |
| بزر الفرنجي كالبرد من مزونها    | ودوي المدافع كالرعود الروازم             |
| من غير طويلة شرح راحت كسيرة     | كم خفرة تبكي دموعاً سواجم <sup>(٢)</sup> |

<sup>(١)</sup> خطط الشام جـ ٣ ص ١١٠.

<sup>(٢)</sup> ديوان شبلي الأطرش ص ٨٧. يا ربيع: يا رفاق، جر العراضي: زحف الجيش، جودل: انتشر والتف، ضبيبي: ضباب، كتايم: سواد، بزر الفرنجي: الرصاص، مزونها: المطر الغزير، الروازم: التهدير، القوي، خفرة: امرأة مصونة، سواجم: غزيرة.

قد كان من نتائج هذه المعركة أن عاد آل الأطرش إلى قراهم وزعامتهم وحصل الشعب في الوقت نفسه على مطالبه الأنفة الذكر كما تمكنت الدولة من بناء قلعة في السويداء وتعيين حاكم على جبل العرب، كما أن الانقسام بين عائلات الجبل استتفل واستمر زمناً غير قصير<sup>(١)</sup>. وفي أواخر عام ١٨٩٢ اعتقلت الدولة العثمانية شبلي الأطرش وحاولت نفيه من الجبل لأن أخاه إبراهيم اتهمه بمحاولة تحريك العامية وإثارة المشاكل بقصد الوصول إلى الزعامة بدلاً منه فعرض الدولة عليه حتى اعتقلته<sup>(٢)</sup> وبينما هو في طريقه إلى معتقلات دمشق هاجم عدد من أبناء الجبل الجنود المرافقين وأجبروهم على الالتجاء إلى قلعة المزرعة وعندما اشتد الحصار عليهم اضطرت الدولة العثمانية لإطلاق سراح شبلي بعد أن قبلت وضع ابنه محمود مكانه كرهينة في القلعة.

### ز- انتفاضة عرمان ١٨٩٧م

بالرغم من كثرة الطواير والجنود وبناء قلعة السويداء استمرت الحوادث تتكرر بين جنود السلطة وأحرار بني معروف الذين يأبون الضيم ولا يسكتون على الظلم. ففي سنة ١٨٩٦م حصل شجار عشائري لأسباب مادية بين جماعة من أهل قرى صلخد ونجران والحراك فاغتنمت الدولة العثمانية هذه الفرصة وأرسلت حملة كبيرة بقيادة أدهم باشا، إلى الجبل لتطويع سكانه، فاشتبك معهم في معارك عديدة في قرصة والسجن ونجران، وأم العلي ثم تمكن بعدها من دخول السويداء والتمركز في قلعتها، ولكنه شعر بحاجة موقعه بعد أن تكررت هجمات الأهالي على القلعة. فأرسلت إليه الدولة حملة بقيادة ممدوح باشا الذي جعلته حاكماً عسكرياً للمنطقة الجنوبية، وعندما فشل بإخضاع الثوار بالقوة أصدر عفواً عاماً خدعهم به حتى سلموا أسلحتهم واستكانوا ثم غدر بهم وألقى القبض على أكثر الزعماء ليلقي بهم في غياهب السجون وينفيهم بعيداً عن وطنهم<sup>(٣)</sup>. ففي شبلي

(١) محافظة السويداء ص ٧٤.

(٢) نفس المصدر ص ٤١.

(٣) محافظة السويداء ٤١-٤٢.

الأطرش الذي تولى الزعامة بعد وفاة شقيقه سنة ١٨٩٢ ووهبي عامر، وحوالي مائتين من الزعماء لبلاد الأناضول وقد وصل بعضهم جزيرة رودس، فتردت الأوضاع بعد ذلك في الجبل كثيراً وزاد الظلم والقهر وحصلت معارك متعددة تمكنت السلطة بعدها من إخضاع الجبل وفرض هيمنتها عليه وتقسيمه لخمس نواحي لكل منها مدير ناحية وهي:

السويداء - صلخد - شهباء - ملح - عاهرة. وشعر الناس بضيق خانق من انتشار الظلم والفساد والرشوة وراح الشعراء خاصة المنفيون في سجون تركيا يصفون الحالة السيئة ويحضون الناس على الثورة ضد الأتراك ومظالمهم بقصائد متعددة سجلت تاريخ تلك الحقبة ووصفت المعارك الكثيرة التي حصلت بين الجيش والسلطة المستبدة وبين الأهالي تقتطف منها ما يلي:

فهذا شبلي الأطرش يصف غدر الأتراك<sup>(١)</sup> بقوله:

اللي وثق بهم لا شك مجنون      من أمن الثعبان مآلو سلامه

كما يصف ظلمهم بعد سيطرتهم على الجبل<sup>(٢)</sup> فيقول:

أول طلب قالوا علف للمواشي      شعير وتبن شندي مع الصبح لازم

هاتوا حطب هاتوا فحم للعساكر      برغل وآت وياغ جامد وعاييم

ستين ليلة والمطاليل قائمة      كلونا مثل خطو السنين الهشاييم

ولما وصلنا الحبس بالذل والشقا      كان الدم من كل المحابيس عاييم

من بعدها صارت على الناس ثقله      طلبوا أموال من السنين القدايم

<sup>(١)</sup> محافظة السويداء ص ٤٢، ٤١.

<sup>(٢)</sup> ديوان شبلي الأطرش ص ٨٩. شندي بالتركي: حالاً، آت: لحم، ياغ: سمن، الهشاييم: المهشمة

المجدبة، الغجر: النور، الحوالة: الجباة، قشط: ساق، لاما: إلى أن، محوجة: خليط.

عدو الحلال وطوبوا الأرض كلها      وصرنا مثل الفجر للظلايم  
صار الحوالة يسحب الجيد منا      ويقشطونا مثل قشط السوايم  
يقلوا اللحم بالسمن والجاج مثله      من غير هذا فحشهم بالكلايم  
شركس وكرد وترك علبة محوجه      لا مادعوا حوران للحشرنايم

### الانتفاضة الهادرة ١٨٩٧

بعد تقسيم الجبل إلى مناطق إدارية وتعيين المدراء والقائمقام ظن الأتراك أنهم وطدوا أقدامهم في الجبل خاصة بعد نفي زعمائه وإرهاق فلاحيه بالأتاوات والغرامات والضرائب. ويبدو أن ممدوح باشا قد ملأه الغرور وتمادى في الظلم والتكيل وإشاعة الرعب والإرهاب معتقداً أن هذا أفضل أسلوب مع سكان الجبل لإخضاعهم. لكن هذا الظلم الشديد ولد ثورة عرمان العارمة سنة ١٨٩٧م.

وهنا يذكر سعيد الزغير ابن عرمان في كتابه ص ٤٦٢ - ٤٦٣ ما يلي:

يبدو أن هذا الظلم كان متزامناً مع حادثة ميثاء أرملة محمد الأطرش شيخ صلخد، إذ كان قائد الجيش ممدوح باشا قد فتن بجمالها عندما قابلته لتحافظ على حق ولدها من أخويه نسيب وجاد الله وقد طلب الزواج منها فرفضت والتجأت إلى والدها حسين الأطرش شيخ عرمان فتعهد رجاله بحمايتها. وعندما علم ممدوح بذلك أوعز للبدو كي يعتدوا على مزروعات عرمان ويتشاجروا مع نواطير البلد وتتاح له الفرصة للتدخل بحجة القبض على النواطير وتأديبهم لكنه كان في الحقيقة يريد اعتقال وجوه هذه القرية الذين سبق لهم أن اجتمعوا سرّاً مع وجوه القرى المجاورة لمعالجة مظالم الأتراك وسوء معاملتهم للسكان<sup>(١)</sup>.

(١) محافظة السويداء ص ٤٢.

وفعلًا عندما عاقب نوابير المزروعات الرعاة على اعتدائهم اشتكى هؤلاء الرعاة إلى السلطة في السويداء فأرسلت مفرزة من ثلاثين جندياً بقيادة ضابطين أحدهم مشرف رضوان لاعتقال النوابير بناءً على شكوى الرعاة.

وكان الضابط مشرف ماراً عندما كان محمود بيك أبو خير يجلب الطعام لضيوفه الجنود فدعاه للغداء قائلاً:

تفضل للغداء لاحق تأخذ زلم فأجابه مشرف: أخذ زلم وسأخذ رأسك أيضاً. فغضب محمود وامتشق سيفه وهجم على الضابط لكن جنوده عاجلوه بإطلاق النار فأردوه قتيلاً. عندها ثار أهل عرمان يريدون الانتقام من العساكر الذين التجأوا إلى مضافة إبراهيم الجرمقاني واحتموا فيها خوفاً من انتقام الفلاحين الذين حاصروا المضافة طيلة يوم كامل. وكان الجنود يطلقون النار على كل من يقترب منهم فقتلوا ثلاثة شهداء من الأهالي على باب المضافة الذي لا يزال قائماً حتى الآن، وآثار خردق طبنجات الفلاحين لا تزال بادية للعيان<sup>(١)</sup> وعندما فشل الأهالي باقتحام المضافة قاموا في المساء بنقب السطح من الأعلى وقتلوا الجنود بالسيوف والخناجر ما عدا مشرف رضوان الذي احتوى بالحريم فغفوا عنه، وكان قد هرب جندي خيال فأخبر ممدوح بما حل بالجنود والمدير.

جهز ممدوح بعد ذلك جيشاً كبيراً مزوداً بأحدث الأسلحة والمدافع. وتوجه في مطلع تشرين الأول سنة ١٨٩٦ لتدمير عرمان وقتل أهاليها، وكان الدليل سليم الجاري الذي تزود بأمر إدخال الجيش إلى عرمان ليلاً لقتل السكان رجالاً ونساءً. لكن الدليل تاه بالجيش طوال الليل بين حيطان الخراب المهدامة على بعد ساعة من مشارف البلد (خربة عيون) وما بزغ الفجر حتى انقضت عليه الثوار برصاصهم وسيوفهم وخناجرهم تتخيم النساء وتقدم لهم الطعام والماء وتزغرد لهم حتى الضحى حيث وصلت النجدات من صلخد والقرى المجاورة، فبدأ تراجع الجيش أمام شدة الهجوم باتجاه الغرب الذي بقي مفتوحاً لهروب العساكر. وكان الثوار يتسابقون على قتل الجنود بالسلاح الأبيض والعصي والفؤوس. فتحول التراجع إلى هزيمة

<sup>(١)</sup> عبد الله حنا ص ٢٣٩.

نكراء ووهنت عزائم الجنود من الخوف وأصبح هم كل جندي النجاة بنفسه، وعندما التقت هذه الفلول الهاربة غرباً بفرقة ثانية كان قد أرسلها ممدوح باشا لتعزيز قواته بقيادة محمد الجارودي الذي هرب مع فرقته ممتطياً فرسه الصفراء قبل الوصول إلى ساحة المعركة. فراح الثوار ينشدون:

صـفـرة جـارودي غـريـت      قـوطـريـحـث رـكـابـهـا

يـا مـحـمـد خـبر دوتـك      حـنا خـذينا طـوابـهـا

(مدافعها)

يقول محمد كرد علي (خطط الشام ج ٢ ص ١):

أحرق الدروز بالقوات التركية من كل جانب وقتلوا نحو ألفي جندي بالفؤوس والسيوف بمحل يدعى (عيون) غرب عرمان وغنموا مدفعين وجميع الأسلحة، والذخيرة واستشهد من أبناء الجبل أقل من مائتين بينهم<sup>(١)</sup> عقاب البربور، محمود غزالة، منصور الشوفي، جبر الحجلة، حمد الزغير، حسن أبو خير، يوسف ياغي، عباس المتني، سليمان طريه<sup>(٢)</sup> زحف الثوار بعد ذلك باتجاه السويداء وحاصروا قلعتها مدة ٢٨ يوماً مستخدمين بواريد الباليك وأم زر التي غنموها. لكن تركيا جردت حملة كبيرة سنة ١٨٩٧ نحو ٥٤ كتيبة بقيادة طاهر باشا لمساعدة ممدوح تمكنت في البدء من الانتصار على الثوار في معركة تل الحديد غرب السويداء، ثم شرع الجيش بعدها بالتقدم باتجاه قنوات وهنا باغته الفلاحون بما عرف بـ (كبسة قنوات) وأبادوا معظم جنوده وغنموا ٥٠٠ حصان. ثم جرت عدة معارك بعد ذلك

(١) الزغير ص ٤٦٤.

(٢) يذكر سامي أبو شقرة في كتاب مناقب الدروز ص ٢٦٦ ما يلي: السيدة سعدي ملاعب أعادة المنهزمين أمام الحملة العثمانية سنة ١٨٩٦ فارتدوا إلى القتال وحققوا انتصاراً رائعاً في معركة عيون قرب عرمان وعادوا يهزجون:

عشانك سعدي ملاعب نفني كل الكتائب  
ما بيرجع لقرابوا السيف حتى يسوي العجايب.

تراجع الثوار على أثرها إلى اللجاة قلعته الحصينة. وهاجموا الجيش بمعركة قرب شهباء دامت ست ساعات استشهد فيها فرحان عامر، يوسف أبو عساف، سعيد نصر، هاني وعبد السلام الحناوي وغيرهم<sup>(١)</sup>.

وقد أرسل عبد الله كمال هذه القصيدة إلى شبلي الأطرش في منفاه في أزمير يصف فيها بعض ما جرى، وهذه مقتطفات منها:

|                                               |                                            |
|-----------------------------------------------|--------------------------------------------|
| أبديت باسمك يا عظيم الأسامي                   | يا باسط الخرسا بسهل وسهامي                 |
| رافع سبع فلاكها بالتمامي                      | تسمع دعا المظلوم وأهل الكرامي              |
| من عقبكم يا بيك صرنا ذليلين                   | من حكم هاللي بلغاهم مهينين                 |
| لا ما غدوا قلوب النشاما ملانين <sup>(٢)</sup> | وعدنا استحيننا بلبسنا للعمامي              |
| نخبرك عن عرمان واللي جرى بيه                  | تقدم درك عبداً أفندي نداويه                |
| يوم إن طغى كان ربك يجازيه                     | هوي وريعو شرب كاس الحمامي                  |
| نهار الخراب تشيب أطفال المراضيع               | وسعدى <sup>(٣)</sup> تنخي بالعيال المضاريع |
| مثل الحطب منا ومنهم مضاجيع                    | مرحوم هاللي مسكنه بالرجامي                 |
| حين الظهر ربك فرجها علينا                     | مثل ليوث الغاب واحنا غدينا                 |
| هني قفوا واحنا وراهم حدينا                    | مثل الجرس تسمع رنين الحسامي                |
| هم جردوها من حجايا وسلانيك                    | بتل الحديد صارت علينا المعاريك             |

(١) الزغير ص ٦٦٤.

(٢) مملوءة غيظاً.

(٣) سعدى: سعدى ملاعب كانت تشجع الثوار.

|                                              |                              |
|----------------------------------------------|------------------------------|
| عيال السويداء لزموها المداريك <sup>(١)</sup> | بالعون أعطوها حقها بالتمامي  |
| ووجه ربعك يلكدوا عالطواي                     | يتقاطعوهم كالغنم والذبابي    |
| يابيك لو تشوف صفر النيابي <sup>(٢)</sup>     | ورزم المدافع مثل يوم القيامي |
| بتنا وتلينا عليهم كسيرة                      | بهوجاس باتوا وأصبحو لك بحيرة |
| وتشااوروا الضباط ويّا المشيرة                | دعنا نفوز بروحنا بالسلامي    |
| ثاني سعدنا يوم كبسة قنوات                    | ياما ذبحنا من العساكر باشوات |
| وياما خذينا من السلايل نجيات                 | بحساب كامل خمس مائة لجامي    |

وقد ورد في كتاب محافظة السويداء ص ٤٤ ما يلي:

(ومع كل هذه المعارك لم يستطع ممدوح باشا أن يخضع الثائرين تماماً فمال إلى مصالحتهم، وبعد أن عقد الثائرون عدة اجتماعات في عرمان وقنوات والسويداء وطالبوا الدولة بتحقيق المطالب التالية:

- ١- إعادة جميع المنفيين إلى الجبل.
- ٢- رفع التجنيد الإجباري عن بني معروف.
- ٣- تخفيف الضرائب.
- ٤- إخراج المساجين من دمشق.
- ٥- تقليل عدد الجنود في الجبل وعدم بناء قلاع جديدة.
- ٦- عدم إلقاء السلاح قبل تنفيذ هذه المطالب.

<sup>(١)</sup> المداريك: الملاجئ.

<sup>(٢)</sup> البعيني ص ٢٧٧.

ومما يروى في هذه الفترة عن المرحوم أحمد المغوش أنه اتكأ على سيفه وقال لرئيس الوفد العثماني المفاوض: (يا أفندينا: أكلنا كمش، وحكيينا دفش، وقرعة ما فهش، وقلاع ما نعرش، وأهل البلاد غائبين مسركلين، منفين. الدولة لها بلاد وما لها عباد. ما نرمي سلاحنا ولا نرجع عن الثورة قبل أن يعود أهل البلاد المنفيون إليها).

### {وعن رواية للأستاذ صلاح مزهر في تلك الأثناء}

حوالي سنة ١٩٠٠م أخذ السلطان عبد الحميد يشعر بوطأة المعارضة السرية المتصاعدة ضده فارتأى أن يكسب ود القوى المتنوعة في سوريا ومنها زعماء الجبل. وبعد وساطات مختلفة<sup>(١)</sup> (الأمير شكيب أرسلان، غليوم امبراطور ألمانيا) أمر بإطلاق سراح المنفيين، وسمح لشبلي الأطرش وعدد من الزعماء المنفيين معه بمقابلة السلطان عبد الحميد الذي أكرمهم وقدم لهم الهدايا وأنعم على شبلي الأطرش بعباءة موشاة بخيوط الذهب بقي زعماء الأتارشة في عرى يتناقضونها مدة طويلة. وقد علق محمد كرد علي كما يذكر عبد الله حنا على هذه الحادثة بالجملة التالية:

لقد نفتهم من الشام ثم أرجعهم مكرمين من الآستانة فابتاعوا بالدرهم التي نالوها من إحسان الدولة سلاحاً في طريقهم ليقاتلوا عمالها<sup>(٢)</sup> أي موظفيها.

لقد أدت عملية الصلح مع الدولة العثمانية بعد إطلاق سراح المنفيين والمعتقلين إلى حلول وسطية كان في طليعتها قبول التنظيم الإداري لعام ١٩٠٠ الذي قسم الجبل إلى ثلاث قائممقاميات<sup>(٣)</sup> مرتبطة بمتصرفية حوران وإعفاء شباب الجبل من الخدمة العسكرية مدة عشرين عاماً وزيارة الوالي حسين باشا للسويداء حيث ثبت الشيخ الهجري بمنصبه كشيخ روجي للجبل ووزع الهدايا والهبات مما حسن العلاقات مع الدولة، واستقرت الأحوال هادئة حتى سنة ١٩١٠ وقد قويت شوكة أبناء الجبل في

(١) البعيني ص ٢٧٧.

(٢) عبد الله حنا ص ٢٤٠.

(٣) عبد الله حنا ص ٢٤٠.

هذه الفترة ولم يتمكن الأتراك من أن يحركوا ساكناً عندما التجأ سلطان ابن الرشيد أمير نجد إلى الجبل هرباً من ظلمهم<sup>(١)</sup>.

### ح- حملة سامي باشا الفاروقي سنة ١٩١٠ والمشانق

ورد في كتاب محافظة السويداء ص ٤٥-٤٦ ما يلي: (في عام ١٩١٠ قررت الدولة العثمانية إخضاع الجبل بعد أن كثر لجوء المتمردين إليه فاغتتمت فرصة شجار وقع بين الأهالي في قرى حوران والجبل وأرسلت حملة مؤلفة من ثلاثين ألف جندي بقيادة سامي باشا الفاروقي<sup>(٢)</sup>، الذي اعتمد أول الأمر على الحيلة حيث استطاع القبض على يحيى الأطرش شيخ عرى وأودعه السجن. ثم زحف على الجبل من ذرعا، ووزع منشوراً وعد فيه بالعفو العام عن كل من يلقي بسلاحه.

ولهذا وقعت البلبل في صفوف بني معروف واجتمع بعضهم في قرية الكفر بينما اجتمع بعضهم الآخر في قرية مفعلة، فهاجمهم سامي باشا في هذين الموقعين، غير أنه هزم ولم يستطع السيطرة على الموقف إلا بعد التظاهر باللين إغداق الوعود الجميلة للمسلمين الذين راحوا يؤدون السلاح ويعلنون الولاء للدولة. وما أن اطمأن القائد التركي لضعف مقاومتهم حتى اعتقل المئات منهم وأرسلهم إلى سجون دمشق وعكا، ونفذ حكم الإعدام شتقاً في كل من ذوقان الأطرش والد سلطان ويحيى ومزيد عامر وهزاع عز الدين ومحمد القلعاني ومحمد المغوش. (ساحة المرجة بدمشق في آذار سنة ١٩١١) أما يحيى الأطرش فقد تمكن من تبديل حكم الإعدام إلى النفي إلى رودس بدفع مبلغ ٤٥٠٠ ليرة ذهبية<sup>(٣)</sup>. وبهذا الإرهاب سيطر العثمانيون على الجبل وراحوا يحصون نفوسه ويسوقون شبابه إلى الجنديّة، ويستوفون الأعشار ورسوم الأغنام. وفي هذه الأثناء نشبت ثورة الكرك في شرق الأردن التي استمرت تتعاون مع ثوار بني معروف في الجبل حتى الثورة العربية الكبرى التي أعلنها الشريف حسين سنة ١٩١٦.

<sup>(١)</sup> محافظة السويداء ص ٤٤.

<sup>(٢)</sup> كرد علي خطط الشام ج ٣ ص ١١٢.

<sup>(٣)</sup> عبد الله حنا ص ٢٤٤.

## قصائد حربية للمرحلة

١- بقية قصيدة أبو علي قسام الحناوي يفتخر بقومه ويصف معاركهم مع الأتراك:

|                                         |                            |
|-----------------------------------------|----------------------------|
| وأيضاً القبر صلي أنا مجرد               | آليات لا يحصى لها مقدار    |
| نزل في الكتيبة والعراضي تنصبت           | وصار الطراد وحات الأفكار   |
| صارت وقايح حرب دهم مهولة                | ما يلزم التعداد والتذكار   |
| وكوان اززع لا شك شاعت أخبارها           | في المدن والبلدان والأقطار |
| وجرت آليات الثقيلة على اززع             | جيش عرمرم يدهش الأبصار     |
| فلاقوه فتیان أشداء بواسل                | صناديد في يوم الوغى شطار   |
| وصاحت على الأتراك صيحة عناتر            | كرت عليهم من عشوش أحرار    |
| أخذنا المدافع وأدبر الجيش منكسر         | ولّى على الأعقاب والأدبار  |
| هد ورحل من أول الليل ساري               | من دون ما يطلع عليه نهار   |
| وهذي مواضعنا وهذي أفعالنا               | وهذا بقوة قادر قهار        |
| ضراغم بني معروف ذباحة العدا             | يا مائنا في المعركات غبار  |
| وكم فارس منا صميدع <sup>(١)</sup> غضنفر | يبعد العدا بالصارم البتار  |
| وكم ليث منا باع روحه بلا ثمن            | بسوق المنايا في الوغى كرار |

(١) صميدع: شجاع.

وكم من أسد خلى نطيحوا ممدداً  
 وكم بطل منا خلاوي إذا لكد  
 يفعل بهم ما يفعل الذيب بالغنم  
 وشبابنا بارودهم بكفوفهم  
 قساور<sup>(١)</sup> أسود الغاب في ملقى العدا  
 وقعة مسيكي كيف ما تذكرونها  
 ولا يرهبوا من كثرة الجيش في اللقاء  
 ولا راعهم ضرب المدافع والكلل<sup>(٢)</sup>  
 وعركات ما يلزم تفاصيل ذكرها  
 ولا هو بقوتنا ولا هو بعزمننا  
 وقام الحريري الآن في البغض والحسد  
 وقام الحضر والبدو والجيش والدول  
 والله بالمرصاد واللي قبيلو  
 وركب خيل إبليس دايم ولم يزل  
 ونحن نحط الله نظيرو يقاتلو  
 وتجعر عليه النايحات جعار  
 عالجمع مثل الضيغم الهدار  
 بضرب اليماني الصارم البتار  
 زلازل في المتراس هجمة نار  
 يسيل الدما من ضربهم فوار  
 ولون من طعن الأسود فرار  
 ولو كان تعداده الألوف كثار  
 وراحت آليات الملوك دثار  
 وكل الأمم في فعلنا خبار  
 إلا بعناية واحد ستار  
 ضيق علينا دائرة البيكار  
 فتحوا أبواب الحرب والأضرار  
 يجازيه فيما من فعالو صار  
 عمال ينفخ مثل صل الغار  
 ويسحق جيوشه سحقة الفخار

<sup>(١)</sup> قساور: أسود

<sup>(٢)</sup> الكلل: القنابل.

|                                |                                |
|--------------------------------|--------------------------------|
| ما يعلم أنا قوم من خاص ما خلق  | وخير القبائل فرقة أخيار        |
| نحننا صناديد نسبنا ممنوع       | عالحرب في يوم الوغى صبار       |
| وأفخر نسب في الأرض تلقى نسبنا  | ومتجنبين العار والمعيار        |
| ترى جدنا النعمان خلفه سما لخم  | وهاني وعنتر سادة أخيار         |
| سلمان والمقداد أيضاً جدودنا    | أبنا ذرورفاعه وكذا عمار        |
| وحننا بني معروف أمة جليلة      | وما قط خنا في حمانا جار        |
| ودوما نصون العرض ولو كان للعدا | إذا ما العج في يوم الكريهة ثار |
| ونصبر كما صبر الكرام على البلا | وفي الملتقى من مثلنا صبار      |

شبلي الأطرش من متفاه يرسل هذه القصيدة.

### قصيدة حرب عرمان

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| قلبي على فقد المحبين ولهمان  | وأحر قلبي من العلوم التوالي  |
| وهمي سمك من يوم فرقاي حوران  | وعيني بديران الرفاقة الخوالي |
| دمعي دفق من مقلة العين غدران | يا ويل من جارت عليه اليالي   |
| علمي بهم يوم أنا كنت طريان   | يا حيف أيام الهناء والدلاي   |
| علمي بهم من نمرة الحيص لمتان | لدامة العليا بركن الشمالي    |

من برد لذيين لشبيح<sup>(١)</sup> سكان  
 وأنا أتحرى العلم والقلب حزان  
 جانا خبر من يم صلخد وعمران  
 عبدو أفندي<sup>(٢)</sup> شارب الخمر سكران  
 يطلب من سباع البر بناً ودخان  
 جوه النشاما وبعد لليوم ما بان  
 ولحين تحت الردم من غير دفان  
 من عقبها صارت معاريك وكوان  
 وتضعضعت حوران من كل الأركان  
 وتوالموا للهوش<sup>(٣)</sup> طلقين الإيمان  
 صاحوا عليهم وانطرب كل سكران  
 حتى رياض بلادنا والمقالي  
 أرجو الفرج من رب خلاق عالي  
 نعمين يا وجوه الذياب المثالي<sup>(٤)</sup>  
 جاهم يهادر مثل فحل الجمال<sup>(٥)</sup>  
 ويريدهم مثل العجر<sup>(٥)</sup> للحوالي<sup>(٦)</sup>  
 هدوا عليه قصور شمش عوالي  
 مع مشرف آغا<sup>(٧)</sup> لجهنم يوالي  
 تشيب الولد الرضيع الموالي  
 عافت لحاها والديش<sup>(٨)</sup> والحلال  
 وتعاون الصبيان من كل جالي  
 واقضوا مثل غيم حداه الشمالي

(١) برد وذيين وشبيح: أسماء قرى ومزارع في الجبل.

(٢) الذياب المثالي: الذئاب الفتية القوية.

(٣) عبدو أفندي: قائد تركي.

(٤) فحل الجمال: الذكر القوي.

(٥) العجر: النور.

(٦) الحوالي: دورية الجيش.

(٧) مشرف آغا: من الضباط الأتراك.

(٨) الديش: المواشي.

(٩) وتوالموا للهوش: تهيئوا للقتال.

الذين من حمر الطرابيش سقمان  
 "بعيون" ذبحو من القروم العيال  
 ضبع الكويرس عازمو ضبع حبران  
 وصار اللحم "بعيون" مثل التلال  
 جرد عيالك والثعالب وويوان  
 وافلح هداك الله عما يوالي  
 من فعل ريع ينطحوا الضد بطعان  
 صلفين يوم الهوش يوم القتال  
 ببلاد سوريا بلا شك فرسان  
 من غيرهم إياك تحسب رجال  
 الله يعز بلادنا بجاه سلمان  
 ويفكنا من أشرار شقا وسالي

### قصيدة الدار

شبلي الأطرش  
 يا دار قلبي دايم الدوم يطريك<sup>(١)</sup>  
 وإن نمت أشوفك بالهواجيس يا دار  
 يا درا ما ظنيت عال عمر نجزيك<sup>(٢)</sup>  
 لكن حكم الله على الخلق يندار  
 يا دار رحنا بالممالك تشاريك<sup>(٣)</sup>  
 ما تنديبنا بتناويح وأشعار  
 يا كبير همي إن كان غيري مراعيك  
 وحنًا بحبس الروم جوات البحار<sup>(٤)</sup>  
 وأنا أتذكر شوفتي لجواريك  
 اللي مع خدودهن مثل القمر

(١) يطريك: يذكرك

(٢) نجزيك: نغادرك.

(٣) تشاريك: ضياع.

(٤) مراعيك: مراقبك.

ياما حلا جمع الرفاق بعلائيك<sup>(١)</sup> والبن يزهى والفتاجين دوار  
يا دار كنت من القبائل معذيك<sup>(٢)</sup> ولاني بحال اللي على الحرب صبار  
لعبوا بك الحساد وأهل التحاريك<sup>(٣)</sup> لا ما غديت للمخاليق معيار  
يا دار كانوا ينحروك المهاليك<sup>(٤)</sup> وكنت مزار ودايم الدوم ينزار  
كم أمير وبيك ياما احتمى بيك<sup>(٥)</sup> من ديرة سعود لبلاد سنجار  
سطام بن شعلان جانا احتمى بيك<sup>(٦)</sup> يوم ان لفى من ضيقة الحبس فرار  
من قبل فيصل وابن دوخي ودواليك<sup>(٧)</sup> وأهل الشمال اللي على الخيل شطار  
ما عمر طوط<sup>(٨)</sup> الروم خوف أهاليك<sup>(٩)</sup> ولا يوم بتي بهواجيس وأفكار  
كثرت شيوخت قام ريك يجازيك<sup>(١٠)</sup> سلط عليك الترك صلفين الشوار  
عفناك لو كان النفل بمقاليك<sup>(١١)</sup> من يوم شاخ البيك أبو سيف جرار<sup>(١٢)</sup>  
شاخ الأبازة وابن صوان والديك<sup>(١٣)</sup> وشيخ القريا ولد غناج مختار<sup>(١٤)</sup>  
شاخوا الشباب ولزموها المداريك<sup>(١٥)</sup> أهل المعاني مالههم ملك وجذار<sup>(١٦)</sup>

<sup>(١)</sup> علايك: الغرف العائلية.

<sup>(٢)</sup> معذيك: مخلصك.

<sup>(٣)</sup> التحاريك: الفساد.

<sup>(٤)</sup> الطوط: البوق.

<sup>(٥)</sup> مفاليك: مراعيك.

<sup>(٦)</sup> أبو سيف جرار: هو حمد الكريدي من قادة العامية - استشهد بمعركة خراب عرمان.

<sup>(٧)</sup> الأبازة: ابن صوان. الديك - ولد غناج: أسماء متزعمين من العامة.

<sup>(٨)</sup> المداريك: الأخطار، الجذار: الأرض القريبة.

أهل العهد بلاعة الحجج ذوليك  
والله لولا الخلف ما ظن يوليك<sup>(١)</sup>  
لو جردوها من حلب للكرك ذيك  
لكن حسبي الله ع من فسد بيك  
من بعد ذا يا راكب اللي تواتيك<sup>(٢)</sup>  
انسف عليها شداها والمباريك<sup>(٣)</sup>  
خرج العقيلي زاهياً بالتحاييك  
من بعدها يا طارشي<sup>(٤)</sup> أريد وصيك  
إن ثورت عقب المناخ ومباريك  
وتمد من عندي تدور مشاحيك<sup>(٥)</sup>  
قامت تثارينا بثارات عمّار<sup>(٦)</sup>  
لا وحق ريّ خالق الخلق قهار  
وجابوا عراضي مع طوابير وأنصار  
راياتهم عندي من الجاز<sup>(٧)</sup> وشحار  
حراً زعاع<sup>(٨)</sup> وعدّها الطير لو طار  
وأكرب بطانها مع حقبا والوسار  
شغل الطموح لشوقها بريش وزرار  
خوذ الزهاب<sup>(٩)</sup> ألما يتركب على النار  
زين النظر دويو يحوك<sup>(١٠)</sup> بالأبصار  
من أزمير دريك يا فتى الجود دوار

(١) أهل احجج بلاعة العهد: كناية عن المفاوضين.

(٢) يوليك: يتولى عليك.

(٣) الجاز: زيت الكاز.

(٤) تواتيك: تناسيك.

(٥) زعاع: سريع.

(٦) المباريك والحقب والوسار: أجزاء من شداد المركوب.

(٧) طارشي: رسولي.

(٨) الزهاب: الطعام.

(٩) دويو يحوك: بالكاديري.

(١٠) مشاحيك: مقاصدك.

منها على قونيا عسى الله يهديك      دربك يمين وحط مرعش عاليسار  
عديار بكر وماردين بمحاريك      غ حلب الشهباء عقب شهر ونهار  
حمص وحماه وانحر الشام قبليك      وسند<sup>(١)</sup> على اللي يكرموا الضيف لوزار  
من عقب ريعات<sup>(٢)</sup> الفرج والمهايك      تلقى عريع يطبخوا البن وبهار  
جبلي علوم خبار هك المعاريك      يا هالترى بغيابنا شو جرى وصار  
مرحوم يللي حاضر الكون<sup>(٣)</sup> هونيك      يسكن عدن<sup>(٤)</sup> بيها بساتين وثمار  
أهل المعاني مثل زمّل المعاريك      يارب لا تثلّم على كل شوّار  
يا الله تفك بلادنا بجاه نبيك      المصطفى من كل ظالم وجبار

### ط- الثورة العربية الكبرى في الجبل

في مطلع هذا القرن بدأ تفتح الوعي العربي السياسي يتفاعل على أرض الواقع، فتشكلت الجمعيات القومية التي تدعو للتحرر من الاستعمار التركي الثقيل الذي جثم على صدر الأمة العربية أكثر من أربعة قرون، ذاق الشعب خلالها الويلات من المؤامرات الدينية والفتن الطائفية والمعارك الدموية والحروب المحلية التي أهلكت البلاد والعباد...!! وعندما عين جمال باشا السفاح (قائد الجيش الرابع التركي) حاكماً على سوريا في مطلع الحرب العالمية الأولى، تودد إلى العرب أوّل الأمر، وتظاهر بعطفه على أمانتهم القومية، ولكن سرعان ما كشف عن نيّاته المبيتة ونفسيته الحاقدة، فبطش بأحرار العرب واستخدام أبشع أنواع الظلم والاستبداد

<sup>(١)</sup> سند: مرّج

<sup>(٢)</sup> ريعات: مواقع.

<sup>(٣)</sup> الكون: الحرب.

<sup>(٤)</sup> عدن: جنة عدن.

أثناء حكمه. يقول محمد كرد علي: ولم يسلم من بطشه إلا دروز جبل حوران الذين خدعوه بوعودهم ولم يتجندوا بحجة العمل في أراضيهم على الرغم من إلحاح القائد العام عليهم، ولو خرجت دولته ظافرة لأرسلت حملة على هذا الجبل تهلكه وتخرجه، تحسباً من ثورتهم ضده، زار الجبل وتودد إليهم ووافقهم على طلب إعفائهم من الجندية وقدم لزعمائهم الخلع والأسلحة وسمح لهم بالتسلح

**ويضيف كرد علي: ومآثرة أخرى عظيمة تعد من مآثر الدروز وهي:**

إنهم أوّلاً في جبلهم نحو عشرين ألف لاجئ من العرب على اختلاف مذاهبهم فراراً من الجندية ويطش الأتراك وظلمهم، وأطعموهم مدة الحرب بلا عوض، فكانت مضافات الرؤساء منهم أشبه بفنادق ومطاعم مجانية خدامهما أصحاب تلك البيوت من أعيان الجبل، فمثّلوا بعملهم القرى<sup>(١)</sup> العربي والمروءة والشهامة<sup>(٢)</sup>.

وبسبب ظلم الدولة العثمانية لبني معروف وما قاسوه منها في حروبهم الطويلة ضدها، وما أقدمت عليه من التتكيل بهم وإعدام عدد من زعمائهم، دعم أكثر أبناء الجبل الثورة العربية الكبرى، وعملوا على الخلاص من حكم الأتراك الحافل بالظلم والفساد...! وما كاد الشريف حسين يطلق الرصاص الأولى إيذاناً بإعلان الثورة على الأتراك، حتى أصبح جبل العرب ممراً للمناضلين ومقراً للسياسيين الهاربين من ظلم الأتراك وملجأ للفقراء الذين منعتهم ظروف الحرب من الحصول على قوت يومهم.....!!

وقد جرت بعد ذلك مراسلات واتصالات عديدة بين فيصل ابن الحسين وأعيان الجبل للتهيئة للثورة العربية والاستعداد لها، وقد نقل على أثرها السيد نسيب البكري قرار الشريف بإعلان الثورة العربية على الأتراك، ورغبة الأمير فيصل بالتعاون مع أبناء الجبل، خاصة وقد كان الكثيرون منهم أعضاء في الجمعيات العربية الوطنية القومية التي زاد نشاطها عندئذ في مختلف أنحاء الوطن العربي وحتى

(١) القرى: إقراء الضيف أي إكرامه.

(٢) خطط الشام المجلد الثالث ص ١٤٦-١٤٧.

في العاصمة العثمانية الآستانة، وكلها كانت تدعو لمقاومة التتريك والاستعمار التركي الغاشم...

### وورد في مذكرات سلطان الأطرش

إنه في ربيع سنة ١٩١٧م قررت المعارضة في الجبل الجهر بالثورة ضد الأتراك ورفعت أعلام الثورة العربية الكبرى فوق مكتب الارتباط بدار حمد البربور في أم الرمان وفي القرية بلدة سلطان باشا الأطرش، وسارت الحملة التي أعدت من أبناء الجبل حوالي ثلاثمئة خيال وهجان<sup>(١)</sup>. سارت لتلتحق بالجيش الفيصلي وعلى رأسها من أعيان الجبل حمد البربور، معذى المغوش، وعبد الله العبدالله. وقد توجه الفرسان نحو العقبة يترنمون بأهزوجة معذى المغوش الآتية:

|                                                |                                   |
|------------------------------------------------|-----------------------------------|
| يا مير ما ودها <sup>(٢)</sup> سكوت             | لازم تـزور بلادنا                 |
| لابد <sup>(٣)</sup> عـ جلق تفوت <sup>(٤)</sup> | وتشوف عـج طرادنا <sup>(٥)</sup>   |
| عيال الجبل أحرار ثبوت <sup>(٦)</sup>           | يفني العدا ملكادنا <sup>(٧)</sup> |
| من مصر لساحل بيروت                             | لنجد لبغدادنا                     |
| من أجلها نحيا ونموت                            | ونحمي حمى أجدادنا                 |

(١) في برقية من الأمير فيصل لأخيه زيد يقول: وصلنا المير نوري الشعلان مع خيالة الدروز ١٥٠٠ خيال.

(٢) ما ودها سكوت: أي الصمت غير لازم.

(٣) لابد: بالتأكيد.

(٤) تفوت: تدخل.

(٥) طرادنا: منافسة الفرسان الراكضين.

(٦) ثبوت: أي يثبتون على قرارهم.

(٧) الملكاد: هجوم الفرسان.

رجال العرب يا هل البخوت<sup>(١)</sup> بالسيف نحمي أمجادنا

وعندما تقدم الجيش الفيصلي نحو الأزرق وصلت إلى سلطان باشا الأطرش في  
القرية رسالة من الأمير فيصل يقول فيها: أخي سلطان... الملقى درعا غداً...  
وبناءً على هذه الرسالة جرت الاتصالات والمفاوضات إلى قرية الجبل الموالية للثورة  
وما هي إلا ساعات حتى كان عج الخيل وأهازيج الفرسان والبيارق تموج خفاقة مع  
الأغاني الحماسية مثل:

يا الله يا معبودنا يا حاكم عالقبايل.. يا الله يا معبودنا

ترشد مان يقودنا عالعزبن الحمايل ترشد مان يقودنا

والشور لكبارنا والفضل لزغارنا بالكون يريوا الهوايل

#### والفضل لزغارنا

سارت الحملة من القرية فاستولت على حامية بصرى التركية وتقدمت نحو  
الشيخ مسكين يخفق فوق ظليعتها الأولى العلم العربي بألوانه الأربعة حيث التقت  
عدة فصائل عربية من عشائر عنزي والحويطات وقبائل بني صخر، والهورانيين  
وفصيل الجبل إلى العقبة، وتقدم الجميع بقيادة الشريف ناصر يطاردون فلول القوات  
العثمانية والألمانية المتراجعة حتى توقفوا قرب الكسوة أمام خط دفاعي حصين وقوي  
أقامه الأتراك في تلؤل المانع، تساقطت منه قذائف المدفعية بغزارة ودون انقطاع على  
المطاردين ففتحت بصفوفهم ثغرات واسعة أدت لتشردهم وانسحاب أكثرهم، وفي  
المساء عرج فرسان الجبل على أقاربهم في الدير علي للمبيت ووضع الخطة المناسبة  
للتنفيذ في اليوم التالي، حيث قاموا بحركة التفاف ونازلوهم بالسلاح الأبيض  
بالخنادق فقتل من قتل واستسلم الأحياء أسرى كان من بينهم ضابط كبير هو رضا  
باشا الركابي أسره فرسان قرية الغارية، ولما عرف سلطان باشا هويته العربية أعاد

<sup>(١)</sup> البخوت: ج بخت وهو النصيب.

له سلاحه وجواداً مناسباً رافق الثوار عليه حتى دخلوا مدينة دمشق ووصلوا ساحة  
المرجة في ٣٠ أيلول سنة ١٩١٨م<sup>(١)</sup>. مع أهزوجة:

وسَّعوا المرجة ترى المرجة لنا وسَّعوا المرجة تتلعب خيلنا

ثم تقدمت مواكب الثوار حتى رفعت فوق دار الحكومة العلم العربية الذي  
كان يرفرف فوق طليعتهم منذ انطلاقها من الجبل. وراحوا يرددون بجوفية<sup>(٢)</sup>  
كبيرة:

عَقبه المريخ وشكينا العلم هذي ديار العرب ونحن رجالها

من الجزائر لراکش لحلب حنا حماة سهولها وجبالها

دخل الأمير فيصل دمشق في ٢ تشرين أول سنة ١٩١٨ واستقبل المهنيون بدار  
فخري البارودي الواقعة بحي القنوات، وشكلت أول حكومة فيصلية برئاسة رضا  
باشا الركابي نفسه<sup>(٣)</sup> الذي سمي أيضاً بحاكم دمشق العسكري وعين الأمير  
عادل أرسلان معاوناً له ومستشاراً للأمير فيصل كما عين رشيد طليع مديراً  
للداخلية واعتذر سلطان باشا كما ورد بمذكراته عن أي منصب حكومي. وقد  
نظم السيد برجس المغوش أهزوجة شعبية في ذكرى هذه الثورة فيما بعد هذه بعض  
أبياتها:

### ذكرى الثورة العربية

طاب الموت يا عرب فيصل الأول قائلها

لنا الجرح لحق القتب<sup>(٤)</sup> والظلم زاد أهوالها

(١) مذكرات سلطان باشا الأطرش الحلقة الرابعة.

(٢) الجوفية: أهزوجة حربية تغنى بشكل جماعي.

(٣) رضا الركابي: الضابط الذي أسره فرسان قرية الغارية.

(٤) القتب: القسم المعدني من شداد البعير الذي يجرح سنامة إذا مسه.

|                                  |                                       |
|----------------------------------|---------------------------------------|
| سـلطان أول من وثب                | لُحْدُ وَأَنْي خيَالها <sup>(١)</sup> |
| صاح أشعلوا نار الحرب             | فـوق القمم وجبالها                    |
| نحر ربها بالاد العرب             | ونجمـع شـتات رجالها                   |
| معذى حداها بالعقب <sup>(٢)</sup> | يا فيـصل شد رحالها                    |
| قول وفعل سوق الحرب               | بنـو معـروف أبطالها                   |
| تركيا ولت بالغصب <sup>(٣)</sup>  | وفرنسـا يلـعن فـالها <sup>(٤)</sup>   |
| واليوم أميركا بالنهب             | تغـزل علـى منوالها <sup>(٥)</sup>     |
| تغتال حريـة الشـعب               | تبـتـزقـوت عيـالها                    |
| وتضحك على عبي القصب              | تـسـلب غـزير أـموالها                 |
| ويتـآمـروا شـرق وغـرب            | ويـتقـاسـموا بـتروئـها                |
| القدس أعيـاهـا الغـضب            | تـنـدب مـصير أـطفالها                 |
| يا حيف أمجاد العرب               | ضـاعـت عـيد أنـذالها                  |

برجس المغوش

السويداء ١٩٦٦

<sup>(١)</sup> لحد وإني خيالها: عبارة نخوة يطلقها المغامر الذي يتكفل بقضية صعبة.

<sup>(٢)</sup> معذى حداها بالعقب: إشارة لأهزوجة معذى المغوش بالعقبة.

<sup>(٣)</sup> تركيا ولت بالغصب: ذهبت مكرهة.

<sup>(٤)</sup> يلعن فالها: هنا يتشاءم من ذكرها.

<sup>(٥)</sup> تغزل على منوالها: تعمل مثلها تماماً.

أخيراً نقول لقد حققت:

هذه الحروب الكثيرة ضد الأتراك العثمانيين وإبراهيم باشا المصري انتصارات  
باهرة للمواقف الوطنية والقومية التي تثبت عندها بنو معروف بالرغم من سلاح  
الطائفية والتكفير الذي استعمله الأتراك ضدهم، وهكذا بقيت مواقفهم  
وأفكارهم في أعماق الضمير القومي والوطن العربي مما ساعد على استمرار ثباتهم  
وانتصاراتهم.